حرية الرأي، والذين لا يعرفون البخور

صحيح أن المثل ما خلى شيئا الا وقاله. ومن الامثال الاكثر حكمة وعقلانية، ذلك القائل "ان الذي لا يعرف البخور تتحرق اذياله". وخلاصة المثل ان الذي يجهل الشيء يسيء استعماله.

وقياسا عليه فان من ولد في القمع ورضع حليب القمع وتربى على القمع وتعلم بالقمع وتزوج وخلف وشاب شعره بالقمع، قد لا يحسن استعمال حرية الرأي، رغم كونه اشد الناس حاجة اليها.

وتحت غطاء كثيف من دخان "حرية الرأي" تقيء الصحافة المحلية، الراقية منها والمتوسطة والمنحطة على السواء، من حين لآخر، كثيرا او قليلا من البذاءات الغوغائية الساقطة.

والعجيب في الامر ان عملية الكذب وتزوير التاريخ وقلب الحقائق بحيث يبدو الجبان شجاعا والجاسوس بطلا والخائن شريفا والكلب اسدا، تتم بهدوء، وبانسيابية تستحي منها الوقاحة نفسها، علما بأن الحديث غالبا ما يجري عن مرحلة لم يتغرب شبانها ولم يمت شيوخها.

وعلى سبيل المثال فان شخصا كان ينكر معارفه ويتنكر لأصدقائه، خوفا من الحكم العسكري، او حرصا على وظيفة، او طموحا الى مكسب شخصي، لا يتردد اليوم في الظهور بمظهر الوطني

النقي الشريف الشجاع، تحت سمع هؤلاء المعارف وأولئك الاصدقاء وبصرهم.

وحين تلفت نظر صحيفة ما الى الاسفاف والكذب والتزوير وسائر الموبقات التي يمارسها هؤلاء الجبناء الرعاديد والمرتزقة الصناديد على صفحاتها فانها تجيب ببساطة: "حرية الرأي يا اخي، حرية الرأي"، حتى لكأن حرية الرأي تشمل كل افرازات البشر واشباه البشر من عقد نفسانية بدءا بعقدة الشعور بالنقص مرورا بعقدة المطاردة وانتهاء بعقدة الفصام التي لا شفاء منها.

يقينا ان بعض السقطات الصحفية او السخفية تتم بسذاجة او ببراءة. لكن بعضها الآخر لا يحدث عفو الخاطر، بل هو جزء من مخطط مدروس يقف وراءه علماء نفس جهابذة، تتطلب منهم وظيفتهم المدفوعة الأجر عدا ونقدا، ان يشيعوا في مجتمعنا مناخا من البلبلة وخلط الاوراق وطمس الحقائق، بحيث يتمكن العملاء والجواسيس المحترفون من التسلل الى صفوف هذا الشعب الصابر المرابط على تراب أبائه واجداده، والمناضل حتى النزيف من اجل مستقبل افضل له ولأجياله القادمة.

ومهما يكن من امر هذا التسيب الفوغائي، المبرمج او الارتجالي، فان هذا الشعب لم يفقد القدرة على التمييز بين الاصالة المجربة وبين التهريج العابر.

وكما قيل، فلن يظل في الوادي غير حجارته، ولن يصمد في الميدان غير خيوله الاصيلة. اما البهائم المسرجة "بحرية الرأي" المفتعلة، فان مجالها قصير، قصر الأرسنة التي تشدها.

ولا يضير الجواد الاصيل طنين ذبابة زرقاء بداء الحقد!

ويخطىء كل من يطالبني بذكر اسماء لهذه المخلوقات البشرية، او شبه البشرية، ذلك انها لا تستحق، ابدا، العبور تحت لسان هذا القلم!

«العربي» ١٩٩٠/٩/٢٨